قصة

فشل كلوي

ميسلون هادي

قالت الممرِّضة:

ـ إنَّها غرفة الطّوارئ.

التفتُّ إلى اليمين فلاحظتُ أنَّ الغرفة ملاصقة للباب الخارجيّ وأنَّها أوّل غرفة إلى يمين ممرٍّ طويل تُحيط به الغرفُ المتلاحقة على الجانبين، شبيهٍ تماماً بممرٍّ آخر يقابله من جهة اليسار كنت أنظر إليه قبل أن ينبّهني صوتُ الممرِّضة للالتفات إلى اليمين.

رفعتُ نظري إلى الممرِّضة لأستفسر عن السّبب الذي يدعوها إلى قيادتي إلى هذه الغرفة بالذّات فقالت:

ـ إنَّها غرفة الطّوارئ. سننقلك يومَ غدٍ إلى جناح النّساء.

قلَّبتُ كفّي، ثم قلتُ لها:

ـ لا أشكو إلاَّ من هذه الحساسيّة.

ثمّ رفعتُ كمّ قميصي إلى الكتف لأريها مرفقي المتقيِّح.

فاستغرقت في الضّحك وقالت:

ـ لا حاجة بك إلاَّ إلى المراهم. وأنا لا أفهم فعلاً لماذا أنتِ هنا؟

ومع هذا فقد اقتادتني، وهي تمسك كفّي المتقرِّحة إلى «غرفة الطّوارئ»، وطلبت منّي أن أرقد على السّرير وأنتظر.

كان في الغرفة سريران حديديّان أبيضان، وأجهزة كثيرة بأرقام، ومفاتيح، وأسلاك، وشاشات، وبكرات ورقيّة. إلاَّ أنَّ سقف الغرفة كان واطئاً جدّاً ومعقوداً بألواح من الخشب تشبه تلك التي تُستعمل في البيوت الرّيفيّة القديمة.

قلتُ لنفسي:

«أيّ نوع من المستشفيات هو هذا»؟

ثمّ وضعت حقيبتي على الأرض وتمدَّدتُ على السّرير الملاصق للنّافذة، ورحتُ أحدِّقُ خلالها إلى الخارج. لَفَتَ انتباهي أنَّ البستاني كان لايزال يعمل في حديقة المستشفى رغم حلول الظّلام، وأنَّه كان كلّما مرَّ يلتفت إلى حيث أنام وكأنَّه يشعر بوجودي رغم عتمة النّافذة والصّمت المطبق على الغرفة.

عادت الممرِّضة بعد قليل وهي تحمل لوحاً صغيراً راحت تدوِّن عليه اسمي وعمري وصنف دمي وعنواني ومعلومات أخرىٰ.

قلتُ لها:

ـ لماذا أنا في غرفة الطّوارئ؟

قالت:

ـ هذه هي التّعليمات.

قلبت كفّي مرّة أخرى لأخبرها بحقيقة مرضي، فضحكتْ قبل أن أفتح فمي وقالت:

ـ أعلم. قروح بسيطة في الجلد.. فعلاً إنَّها قروح بسيطة في الجلد.

وبدت كلماتها الأخيرة محيّرة لي وكأنَّها مقصودة للتّضليل والتّطمين لا أكثر. انصرفتْ بعد أن علَّقت لوحها الصّغير على حافة سريري، ونسيتُ أن أسألها عن السّبب الّذي يدعو مستشفىٰ حديثاً لعقد سقوفه بألواح الخشب بدلاً من أسياخ الحديد.

انطلق صوتُ الميكروفون يردِّد اسم الطّبيب الّذي سبق أن استُدْعيَ قبل قليل إلى غرفة العناية المركّزة. كان النّداء الأوّل قد انطلق منذ أكثر من ساعة ولم أجد تفسيراً منطقيّاً لهذا التّأخُّر الطّويل في تلبية نداء مستعجل. حدّقتُ مرّة أخرى عبر النّافذة فرأيتُ تحت المصباح القريب شجرةَ زيتون ضخمة تحتلّ مساحة واسعة من الحديقة تنوء بحملٍ ثقيل جدّاً، والبستاني يفرِّق الأغصان الكثيفة بتمهُّلٍ شديد ويقطف منها

زيتونات كبيرة جدّاً ثمّ يضعها في جيبه. وددتُ لو أنهض لفتح النّافذة، لكنّي استسلمت للنّوم. كنتِ أستغرق في غفوات قصيرة أحلم خلالها بأنّ النّافذة مفتوحة فعلاً، ولكنّي عندما أصحو أجدها مغلقة، فأعود إلى النّوم من جديد. غفوة تلو أخرى والنّافذة لاتزال مغلقة وأنا أتثاقل عن القيام لفتحها... إلى أن انفتحت فجأة على مصراعيها واكتسحت الغرفة ضجّةٌ مفاجئة جعلتني أنهض من النّوم مأخوذة لأجد الممرِّضة أمامي وهي تمسك لوحَها الصّغير وتسجِّل عليه بعض المعلومات ثمّ تعلّقه على السّرير المجاور لسريري.

قالت قبل أن أسألها:

ـ السّرير أصبح مشغولاً.

ثمّ أضافت وهي تعلّق اللّوح في نهاية السّرير:

ـ إنّه يحتضر وسيموت قبل الصّباح.

قلت لها بخوف سرعان ما ندمت عليه:

ـ يحتضر؟ لماذا جئتم به إلى هنا إذن؟

قالت وهي تمسك يد المريض اليسرىٰ لتجسّ نبضه:

ـ غرفة الطّوارئ كما ترين هي أقرب الغرف إلى الباب الخارجي.. وعندما يشرفُ أحدُ المرضىٰ على الموت نضعه فيها حتّى يتمّ إخراجه من باب المستشفىٰ بهدوء ودون أن نثير الهلع بين المرضىٰ الآخرين.

انقلب المريض في هذه اللّحظة على ظهره بعد أن كان ينام على جانبه الأيمن، وأطلق أنّةً صغيرةً، ثمّ راح يغطّ في تنفّس منتظم.

قلت لها:

ـ ما به؟

قالت:

ـ فشل كلويّ.

قلت:

ـ هل هو فاقد الوعي؟

قالت:

ـ ليس تماماً.. يصحو ويغيب.

ثمّ أردفتْ، وهي تترك يد المريض وتتّجه إلى اللّوح المعلّق في نهاية السّرير:

ـ أعلم أنّه كان يجب أن نستأذنك قبل أن نضع هذا المريض معك.. ولكنّها غرفة واحدة للطوارئ.. وعلى أيّة حال فقد اتّصلت بأهله وربّما يجيئون لاستلامه قبل أن...

قاطعتُها بعصبيّة:

ـ لخاطر الإلٰه.. كيف تتركونني مع رجل يحتضر حتّىٰ الصّباح؟. أنا أخاف.. لا أحتمل.. أخرجوني فوراً من هذه الغرفة.

قالت الممرِّضة بضيق:

ـ تخافين؟ إنّه لن يؤذيك.. سيظلُّ راقداً هكذا حتّى يموت، وعلى أيّة حال أنا حاضرة لهذه اللّيلة وسأكون هنا كلّ نصف ساعة.

قلتُ لها:

ـ أخرجوني من المستشفىٰ.

قالت:

ـ الوقت متأخّر.. ولا يُسمح بمغادرة المستشفىٰ إلاّ بورقة خروج من الطبيب الأخصائي.

قلت لها:

ـ وأين الطّبيب الأخصائي؟

قالت:

ـ لا يوجد الآن سوى الطبيب المناوب.. أخبرتُكِ بأنّي قد اتّصلت بأهله، فلا داعي للهلع.

كرّرتُ:

ـ لماذا أنا هنا؟ أنا لا أفهم.

قالت:

ـ أنا أُنفّذ التّعليمات.. نستلم الحالات الجديدة هنا ولا نحيلها على الأجنحة إلاّ في الصّباح.

ضحكت الممرِّضةُ تلك الضّحكةَ الغامضة المضلّلة مرّة أخرىٰ، ثمّ أعادتْ طبلة المريض الجديد إلى مكانها وانصرفت.

* * *

سقط نظري عليه رغماً عنّي، فانتبهت لأوّل مرّة إلى سواد شعره وشاربيه سواداً كثيفاً يوحي بأنّه لايزال شابّاً في الثلاثينات من العمر. بشرته الفتيّة تحوّلتْ إلى قشرة شمعيّة فيها ذبول واصفرار، وشفتاه ابيضّتا قليلاً كما ابيضّت أصابع يده وتقشّرتْ. نهضتُ من مكاني مدفوعةً بالفضول، وسرتُ حافية القدمين إلى مؤخّرة سريره ورحت أقرأ في لوحه الصّغير المعلّق هناك:

ـ حازم عبد الرّحمن

ـ ٣٧ سنة

ـ O +

ـ فشل كلويّ.

معلومات لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تبرِّر كيف انتهى هذا الشّاب الحادّ الملامح، الذي لاتزال علاماتُ الحيويّة باديةً عليه، إلى هذا الجسد الذّاوي الذي لا حول له ولا قوّة.

فتح عينيه لحظات قليلة تفوّه خلالها بكلمات غير مفهومة ثمّ رفع يده في الهواء ومدّ كفّه في الفراغ وكأنّه يأخذ شيئاً من أحدٍ ما.

قلت له:

ـ هل تريد شيئاً؟

ظلّتْ كفُّه اليسرى معلّقة في الفراغ كأنّها تريد القبض على شيء محدّد. فانتبهت إلى وجود خاتم زواج في بنصره، وساعةٍ سوداء تحيط بمعصمه تنمّ عن ذوق رفيع. كانت أصابعه ويده بيضاء نظيفة ومكسوّة بقشور رقيقة وكأنّه خارج لتوّه من الحمّام.

قلتُ له بصوتٍ أعلىٰ:

ـ هل تريد شيئاً؟

هبطت يده إلى الفراش بطريقة يائسة. لم أكن أشعر بأيّة رغبة في مواساته لأنّي كنت أفكّر وأنا أنظر إليه بأنّ أفظع ما في الموت هو تدخّل الآخرين فيه.. ومع ذلك قلت لنفسي: ربّما يكون عَطشاً فاتّجهتُ إلى قدح الماء الموضوع قرب السّرير لكي أرفعه إلى فمه. ولكن قبل أن أتحرّك لأفعل ذلك سمعت صوت انفتاح الباب فتوقّعت أن تكون الممرِّضة قد جاءت لقياس النّبض.

انفتح الباب بهدوء شديد ودخلت امرأةٌ شابّة ترتدي ملابس قاتمة جدّاً وتضع على رأسها وشاحاً أسود. قالت بصوت ضعيف:

ـ أيوجد مريض هنا باسم حازم؟

قلت لها:

ـ نعم.

فقالت:

ـ أنا زوجته.

دخلتْ بعد تردُّد وهي تنظر إليَّ باستغراب لم أفهم سببه في البداية ولكنّي فطنتُ إليه بعد فوات الأوان. كانت تستغرب خلط الرّجال مع النّساء في غرفة واحدة. ولم تكن بي رغبة في تلك اللّحظة لتبرير أيّ شيء لهذه المرأة التي لا أعرفها، واكتفيتُ بأن رددتُ تحيّتها وعدتُ إلى مكاني مصطنعةً النّوم.

جلستِ المرأةُ قرب زوجها... وبسرعة خاطفة خلعت خاتمَ زواجه وساعته الثّمينة ودسّتهما في حقيبتها اليدويّة ثمّ استرخت بعد ذلك كمَن أنجز واجباً لا بدّ منه، وتناولتْ قدح الماء من فوق الخزانة وراحت تقطّر الماء في فمه ببطءٍ شديد وتتنهّد.

شعرتُ في البداية باشمئزاز، ورحتُ أفكّر بما يمكن أن يحدث لهذا الشّاب إنْ هو أحسَّ بما فعلته زوجته؟ أيجعل ذلك ساعاته الأخيرة أكثر أوقات حياته تعاسة!؟ وإنْ حدث ذلك فماذا يمكن أن يقدِّم أو يؤخّر!؟؟ أيندم؟! أيحزن؟ أيبكي؟ أيشفق على نفسه؟ أيكره؟ أيموتُ على الفور؟ أيتظاهر بالاهتمام ويقول كلمةَ لوم أخيرة لا تضرّ ولا تنفع؟ أيدرك أنَّ فشلَه الكلويّ أهونُ عليه الآن من هذا الفشل الحياتي الذي تأخّر اكتشافه أيّما تأخّر.. أم سيدرك أنّه لا ينبغي أن يلوم الآخرين مادام جسدُهُ قد غَدَر به؟

اشتدَّ نعاسي وأنا أفكّر بأنّي ربّما كنت سأفعل الشيء نفسه لو كنت مكان تلك المرأة. ثمّ نعست أكثر فتساءلت إنْ كان تقدُّمُ العمر يحدونا لكي نتفهَّم أخطاء الآخرين على أنّها أخطاؤنا التي لم نرتكبها بعد. ثمّ نعست أكثر فأكثر فشعرتُ بالكراهية تجاه تلك الزّوجة، ووددتُ لو أنّها تموت بدلاً من زوجها.

* * *

في الصّباح كان السّرير بقربي فارغاً.. وعندما اقتادتني الممرِّضة من غرفة الطّوارئ إلى جناح النّساء، توقّفتُ قليلاً قرب البوّابة الخارجيّة للمستشفى فرأيتُ مجموعة من الرّجال تضع تابوتاً كبير الحجم فوق سيّارة أجرة.. كانت الزّوجة تبدو، وهي تبكي زوجَها وتصرخ وتتلوّى، وكأنّها غيرُ تلك المرأة التي شاهدتها بالأمس، وكانت تجاعيدُ وجهها تبدو أكثر حدّة في ضياء الشّمس وهي تختلج وتختفي لترشق المارّة برذاذٍ لا ينقطع من الولولات.

انتظرتُ حتّى تحرّكتْ سيّارةُ الأجرة قبل أن أستأنف سيري من جديد. لم أعدْ أشعرُ بالكراهية ذاتها لهذه المرأة.. بل انتابني الشكُّ فيما إذا كنتُ أعرفها أصلاً.. ولم يعد الأمر يعنيني تماماً كما كان يعنيني في اللّيلة الماضية.

بغداد

انتظار

ساجدة الموسوي

ليلةٌ من حنين
ليلةٌ من مطر.
غابَ فيها النُّعاس
نامَ فيها الشَّجرْ
أطبقَ الصَّمتُ على كُلِّ شيء
ما عدا قلقي المنتظر...
«وحدنا» كنتُ
لا أحد غيرنا
قلتُ يا ريحُ هاتي صدىٰ
أهلنا من بعيد
ويا برج روحيَ
راقبْ طلوعَ القمرْ
قطارٌ من الحزنِ يمشي
علىٰ سكّةِ العُمُر
أسمعه من بعيدٍ
يسيرُ الهوينا

وأدري المحطّاتِ موحشةً
والقناديل مرهفةً
والمساءُ طويلٌ.. طويلْ...
لا أنيسٌ ولا نأمةٌ
غير ورقاتٍ ذابله
ومدادٍ حزين
غير بعض الرّسائل
بعض الصُّوَر...
ليلةٌ لا أُبالي تطولُ
إذا ما تلاها نهارٌ
وأدري يجيءُ
وحتماً يجيءُ
وحتماً أراهُ
وحتماً أنامُ علىٰ راحتيهِ
وأغفو كما أُريد
في ثنايا الزّهر